الكتب

البراجماتزم

للأستاذ يعقوب فام

أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

بقلم الأديب ت . الطويل

يقول الأستاذ الجليل أحمد أمين فى المقدمة التى مهد بها لقصة الفلسفة اليونانية : « لا بد للأديب الحق من وقوف تام على علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وبالجملة على فروع الفلسفة ، فذلك يجعل نتاجه أقوم ، وتفكيره أعمق ، وأفقه أوسع ، ومنابع تفكيره أغزر ، ويحمله على أن يفلسف الأدب ؛ ولا يتسنى ذلك إلا إذا أدَّبْنا له الفلسفة »

وقد أدب الأستاذ وزميله الفلسفة اليونانية فأحسنا تأديبها ، والتزما فى عرضها مسلك الأديب فى الكشف عن خواطره فى أسلوب يجمع بين السلاسة والرصانة . واستفرغا الوسع فى العمل على رفعة القارئ إلى مستوى الكاتب . . . ثم أخرج الأستاذ يعقوب فام كتابه فى « البراجاتزم » وسلك فيه مسلك العلماء فى تبيان خواطرهم وعرض آرائهم . وتبسيط المعقد من أفكارهم . لم يقف حيث هو فى ذروته ويمد يده الى القراء ليرفعهم اليه ويعلو بهم الى مستواه . بل هبط اليهم وتبسط معهم وأخذ يتألفهم ويترضاهم فى إسراف — قد يدعو الى الملل أحياناً — رغبة منه فى اكتساب مرضاتهم عنه حتى يقبلوا اصطحابه إلى حيث يعبس . . فأنت تقرأ الكتاب فلا تحس وأنت ماض بين صفحاته إلا أن الاستاذ يعقوب مدرس يلقى على تلامذته الصغار درساً فى الفلسفة ، فهو مشفق عليهم من وعورة مسالكها وظلمة مرادبها ورحابة آفاقها ، يعرضها عليهم فكرة بعد فكرة فى تفصيل وإطناب ، ولا يترك رأياً إلا دار حوله بعد الاسهاب فى شرحه متوهماً أن بعض التلاميذ لا يزالون يعالجون الفهم فيستعصى عليهم ، ولكنه يعود فيتذكر أنه يكتب كتاباً ستتناوله أيدى فئات من القراء تتفاوت فى المدارك قوة وضعفاً ، فيعتذر لقارئه عن الاطالة ويستأذنه فى المضى الى طريقه ؛ ويعود سيرته الأولى موضحاً رأيه بأسلوب يمتاز بالسهولة والبساطة وإن لازمته الركاكة ، ويسوق لتلامذته الأمثلة المستمدة من حياتهم اليومية ، حتى إذا فرغ من شرحه عاد فلخص ما أسلف فيه القول ، ولم يبق عليه بعد هذا إلا أن يضع لهم طائفة من الأسئلة يتناول بها آفاق الموضوع شأنه فى ذلك شأن المدرسين الذين يضعون لتلامذتهم مصنفات تتناول برامج الدراسة المقررة . . !

والأستاذ أحمد أمين أديب عالم ، ولكنه قد سلك مسلك الأدباء فى الكتاب الذى صنفه بالاشتراك مع زميله الأستاذ زكى نجيب مؤثراً هذه الطريقة مقتنعاً بها راضياً عنها . وكذلك قل فى الأستاذ يعقوب وإيثاره للطريقة التى أسلفنا الاشارة اليها الآن ؛ وأكبر الظن عندى أنه لا يستطيع غيرها إن لم يكن مقتنعاً بها . وأنه غير نادم على عجزه عن « تأديب » الفلسفة . لأنه لا يحترم الأدب ولا يكبر أهله . فالأديب رجل مخرَّف لا تعنيه إلا زخرفة اللفظ وبهرجة الأسلوب اللغوى . . ! فان كان القارئ قد تملكه العجب لهذا التعبير فليسمع نصَّ ما يقوله الأستاذ يعقوب فام ص ٧٢ :

« هل العقل الانسانى مرآة فقط ليس لها من عمل سوى أن تعكس الحقائق الخارجية دون تصرف أو تدخل من ناحية ؟ أم هو كالفنان الذى يتناول قطعة الحجر ويصنع منها تمثالاً جميلاً منظماً متناسباً ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك وإنما يشبه الأديب الذى يخلق الأشخاص والحوادث والبيئة المحيطة بهذين خلقاً من العدم ؟ (العهدة) على الاجابة عن هذا السؤال يتوقف الشىء الكثير . فلو قلنا إن العقل كالمرآة كنا من أتباع فلسفة الواقعيين ؛ وإن قلنا إن العقل كالأديب يخلق الكون خلقاً ، وإن الأشياء لا وجود لها فى

ذاتها وانما وجودها يتوقف على العقل وحده كنا من أتباع الفكريين Ideabsts الذين يزعمون أن الحقيقة هى عقل أو فكر وأن المادة شيء وهمى لا وجود له . وأما إن قلنا إن العقل يكيف الحقائق الخارجية Facts of Experiences كما أن ..... الخ »

هذه هى نظرة الأستاذ الى الأدب وأهله . ولست أعرف فى الأدب مذهباً يتيح لصاحبه أن يخلق من العدم أشخاصه وحوادثه وبيئته — ان كان فى وسعه أن يفعل ذلك — والغريب أن يفرق الأستاذ الكريم بين الأدب والفن هذه التفرقة العجيبة التى لم أسمع بها على هذا النحو من قبل اليوم . ثم كيف يخلق الانسان من العدم بيئة تعج بالحوادث والأشخاص ؟ أبالخيال ؟ إن عجبك ليشتد وينمو حتى يملأ شعاب نفسك حين ترى الأستاذ يقول ص ٨٣ ما نصه :

« هذا الشعور الخفى بالحق (عند المتصوفة) يقابل الخيال عند الرجل العادى . فالخيال ينتج من التفاعل بين مجموعة الاختبارات التى جازها الفرد فى حياته اليومية ، ومن نشاطه بين أفراد نوعه ، ومن الغرائز الموروثة . هذا التفاعل بين الاختبارات والدوافع الموروثة عند الفرد هو الذى ينتج الخيال . ومع أن النتيجة قد تكون واحدة إلا أن الفرق بين التصوف والخيال واضح ، فالأخير مبنى على العقل والاختبار ، والأول مبنى على القوى الخارقة للطبيعة التى تلقى بالمعارف الى الانسان إلقاء . الخيال إنما هو قفزة يقفزها الانسان إلى الامام ، والتصوف هو الاستسلام للاتصال الخفى بين الفرد وعالم الأرواح ، أو الفرق بين الرجل العادى ذى الخيال الخصب ، والرجل الصوفى هو هذا : الأول منهما متصل بالحياة وبالاختبار وبنشاط الجسد من مشاهدة وحس بأنواعه ... »

هذا هو الخيال عند الرجل العادى كما يفهمه الأستاذ يعقوب ، أما الخيال عند الأديب كما قال ، فهو توهم ما لا وجود له ، وتصوير ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يدركه حس ؛ هو نوع من الرجم بالغيب والحدس بالمعلوم ! لا تقل إن الأديب فى عرف الأستاذ رجل مجنون ، فان المجنون لا يفعل فى تصرفاته أكثر من أن يستعيد صورا ذهنية عن مدركات حسية فى شكل مبالغ فيه الى حد يتجاوز حدود العقل ويتخطى نطاق العرف . فالمجنون أقرب الى الحياة من الأديب فى رأى الأستاذ ..! ولهذا ارتقى الى ذهنى الظن بأن الأستاذ غير نادم على أنه لم يكن أديباً .. كما أشرت الى هذا قبلاً

وأكبر الظن أن الأستاذ يعقوب قد اختلط عليه معنى الidealists فى الفلسفة ومعناها فى الأدب . ففى الفلسفة يراد باللفظة « التصوريون » — وأنا أوثر هذه الترجمة على « الفكريين » التى يستعملها الأستاذ حتى لا يختلط معناها بالعقليين Rationalists — وهم الذين يظنون أن الحقيقة فكر ، وأن المادة لا وجود لها ، كما أبان الأستاذ ، ثم يراد بلفظة Idealists فى الأدب « المثاليين » ، وهم الذين ينزعون الى تصوير المثل العليا ، والتحدث الى الناس عما ينبغى أن يكون . فهى فى الفلسفة مشتقة من Idea أى فكرة أو صورة ذهنية . وهى فى الأدب مشتقة من Ideal أى مثل أعلى . والأديب المثالى لا يخلق من العدم شيئاً ، وإنما يدرس «الكائن» فى هذه الدنيا فلا يعجبه ولا يروقه فيحن الى كمال يعوض هذا النقص ، ويصور المثل الأعلى الذى يحقق ما ينبغى أن يكون . وهو فى تصويره إنما يعتمد على المدركات الحسية فى أرحب معانيها ، وخياله لا يؤلف له الصور الجميلة الى النفس إلا بالاعتماد على ما يعرفه من مدركات الحس . فان كان للمذهب التصورى وجاهته فى الفلسفة فهو بمعناه الفلسفى هراء فى عرف الأدب وأهله

على أن هذا الكلام لا يراد به الطعن فى الطريقة التى سلكها الأستاذ يعقوب . فان تأليف كتاب يتناول هذه الآفاق الرحبة فى الفلسفة وعلاجها على هذا النحو البسيط السهل الميسور لكل قارىء لقدرة ومهارة تستحقان كل ثناء وإعجاب . فان كنت فى شك من هذا فقارن ما كتبه الأستاذ بما يكتبه أغلب الذين ينقلون الى الجمهور نظريات علم النفس ، ترَ العجز البين عن تعسير ما يكتبون حتى فى نقل الأمثلة التى قرأوها فى المراجع الأجنبية . . . ! أما الأستاذ يعقوب فهو يحدثك عن أحدث مذاهب الفلسفة وأقدمها فتحس وكأن أصحابها مصريون تحسن فهمهم وتجيد تقديرهم ولا تجد بينك وبينهم هوة فى فكر أو روح . . !

وقد انتهى الأستاذ إلى هذا التوفيق ببعد جهد كان أبرز آياته الانتقاد عند كل فكرة والاطناب فى شرحها حتى يطمئن على سهولة فهمها ويسر إدراكها . على أن هذا الانتقاد وإن لازمه فى « شرح »

الكتاب منذ بدايته حتى نهايته ، فان فى بعض الفصول التى أضافها الأستاذ توضيحاً للمذاهب أو تمهيداً لذكرها أحكاماً يشوبها الضعف أو نقصاً فى استيفاء الموضوع . أو هكذا يخيل إلىّ . . . فتراه يكتب فصلاً يدلّل فيه على أن الناس خاصتهم وعامتهم يتفلسفون وإن أنكر بعضهم أنه يتفلسف . . ! ذلك لأنهم يعيشون فى الدنيا ويضربون فى زحمتها متأثرين بآراء قد تولت الفلسفة البحث فيها وانتهت منها إلى نظريات ومذاهب قد يعرفها طغام الناس . وهذا رأى غريب ، لأن الفلسفة ليست « لمناوين » من عرفها كان من حقه أن يكون فيلسوفاً ، وإنما هى « بحث » يتناول الآفاق المجهولة فى رحاب الحياة ، هى « بحث » مجهول للناس يتناول ما تجهله العلوم وأهلها — ونهجها فى ذلك توضحه هذه الجملة : أنى وقف التفكير العلمى بدأ التفكير الفلسفى — فالناس عامتهم وخاصتهم لا يتفلسفون وإنما تبلغهم آراء يوحى بها الدين أو يمليها العرف — بما يؤلفه من مختلف العناصر — فيعملون بها ويسيرون على نهجها من غير تفكير فى أمرها ؛ فان تناولوها بالجدل حيناً فسرعان ما ينحرفون عنه مقتنعين ولو بلاشىء . وليس هذا شأن المتفلسفة فى أى زمان أو مكان . . . أو ترى الأستاذ يكتب فصلاً ممتعاً يتناول فيه وظيفة العلم وطريقته فى البحث ويلخص لك ما ينتهى اليه ويثبته فى أرقام مسلسلة ليتيسر للقارىء معرفة الفوارق بينه وبين الفلسفة ، ولكنه ينسى أن يتحدث فى هذا الفصل عن أولى الخواص التى لا يستطيع الانسان فى العصر الحديث أن يتصور العلم من دونها ، وهى أن العلم يمتاز من سائر آفاق المعرفة الانسانية فى أنه « يبحث الشىء من حيث هو شىء » وليست تعنيه علاقة هذا الشىء بغيره من الناس . ولهذا كان العلماء آخر من يفكر فى الانسانية ويعطف عليها ، لأن التفكير فى صالحها يدخل فى باب العاطفة ، وبين العلم والعاطفة عداء مستحكم الحلقات . فمخترع الغازات السامة أو الغواصات أو الدبابات وما اليها عالم موفق قد تهيأت له أسباب النجاح فى تطبيق نظريات العلم — وإن ساء فيه رأى المجتمع وجزع الناس لما اخترع — وإن قلت له إن عملك يشقى الناس أجابك على الفور : أنا عالم ، أبحث الشىء من حيث علاقته بذاته ، ولا شأن لى بعد هذا بما تفضى اليه نتائج البحث وتطبيقها خيراً كان أو شراً »

على أن من العدل أن نقول إن قيمة الكتب لا يحددها اتفاق الرأى بين الكاتب والقارئ ، وإن خلوها من المآخذ التى يتصورها الناقد لا يصلح أن يكون مقياساً للاعجاب بها والرضا عنها ، لأن مدارك الناس فى تفاوت ، ثم إن خلوهم من النقص محال

وقد تثير هذه الكلمة فى نفسك سؤالاً تطلب الى فيه أن ألخص لك « البراجاتزم » ولكنى لن أجيبك الى مطلبك إشفاقاً على نفسى من الاضطلاع بهذا العمل . وأمامك كتاب الأستاذ يعقوب فاقرأه تعلم أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنصفت فى اختيار هذا الرجل للقيام بتأليف هذا الكتاب ، فهو عالم يكثر الاطلاع ، ويحسن الفهم ، ويجيد العرض ؛ ويحب أمريكا ! ومن أقدر على الكلام فى « البراجاتزم » من رجل تتوفر له هذه الصفات . . ؟

ث . الطويل
ليسانسيه فى الفلسفة

الإيحاء
فن الحياة ومفتاح السعادة
التنويم المغنطيسى (بالصور) ٥ (٥ والبريد ١)
قراءة الأفكار وعلوم نفسية ١٠ والبريد ٢
موجز التنويم بالصور ٥ " ١
عشرة مجلدات
للأستاذ وليم سرجيوس المحامى بمصر
شارع الترعة البولاقية رقم ١٥٦ بالتبتية

أيها المرضى بالبول السكرى -
لا يجوز لكم أن تيأسوا من شفائكم أو تهملوه
قبل أن تجربوا الدواء الجديد
أنتيكومان !
فهذا الدواء مركب بناء على أحدث الأبحاث
العلمية الخاصة بهذا المرض .
اطلبوا البيانات اللازمة مجاناً من
جلاتهورمين . صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر